

مُقَدِّمَاتَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضَلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْيَقِينُ الَّذِي تَنْشُرُحُ لَهُ صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَقْرُبُهُ أَعْيُنُهُمْ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ تَفْكِيرُهُمْ، وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تُخْلُقَ نَوَاةَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا.

إِنَّ عَامِلَ الصَّدْفَةِ لَا يَجُوزُ فِي هَذَا الْمَجَالِ عِلْمِيًّا، وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ الْقَوْلَ بِحُدُوثِ الْعَالَمِ وَحْدَهُ، وَمِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ هَرَاءً، وَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ إِلَهٍ عَالِمٍ مُقْتَدِرٍ حَكِيمٍ جَبَّارٍ.

إِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ، آيَةٌ تَنْفِي الرِّيبَ وَتُورِثُ الْيَقِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.... [الذاريات: ٢٠٠، ٢١].

إِنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَادِرٌ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ تَصْدِيقُهُ، فَإِذَا مَا فَكَّرَ الْإِنْسَانَ فِي خَلْقِهِ، وَدَقَّةِ حَوَاسِهِ، وَتَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَعْضَاءَ الَّتِي خَلَقَهَا الْخَلَاقُ الْعَظِيمُ، وَبَدَأَهَا الْمُدَبِّرُ الْحَكِيمُ، فَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ بِمَا أُوتِيَ مِنْ عِلْمٍ وَمَالٍ وَسُلْطَانٍ أَنْ يَسْتَعِضَّ أَحَدَهَا لَوْ سَلَبَتْ، أَوْ أَنْ يَرُدَّهَا بَعْدَ تَلْفِئِهَا، بَلْ حَتَّى يَعْرِفَ سِرَّ تَرْكِيبِهَا؟

على أن العلاقة بين القرآن والعلم ليست بحاجة لكثير تأكيد، ولكن ما نود إبرازه هنا: أن القرآن الكريم يتحدث عن الله تعالى العلي الكبير؛ فيشعر بكأن قدرته وراء النواة التي تتكون لتصبح نخلة، وهي في الوقت نفسه وراء الفجر الذي يشق الظلمة ليكون نوراً.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوْمِ ۖ يُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنَ الْأَمْتِ وَيُخْرِجُ الْأَمْتِ مِنَ الْغَيْبِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ ۗ تُوَفِّكُونَ ﴿٩٦﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۗ﴾
.....[الأنعام: ٩٥، ٩٦].

وعلى هذا الأساس ينهض الإيمان الحق، وعلى تلك المعرفة تحيا العلاقة بالله؛ لأنها إحساس بوجوده، وملاحظة لصفاته، ومتابعة لآثاره هنا وهناك.
والإيمان الذي دعا إليه القرآن الكريم هو ثمرة الدراسة الواعية للكون الكبير، وما أنبت في جوانبه من أحياء.

وتستطيع أن ترى قدرة الله في كل شيء، في قدرته وإبداعه، في أرضه وسنائه، في كل ظواهر الحياة، وفي كل دلائل الوحدانية والعظمة والقدرة، وهي شرائع صامدة، يُعبّر عنها عادة بالمعادلات والقوانين، وهذا ينبئنا بالخبر اليقين، وهو أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الحق، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾.... [طه: ٥٠].

والذي يقرأ القرآن الكريم عن علم لا يستوي مع من يقرأه بغير علم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِرَجُلٍ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّلْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾..... [الزمر: ٢٩].

وهؤلاء الذين يفكرون ويتدبرون هم الذين يستحقون وصف الله تعالى بأنهم أولو الأبواب؛ لأنهم يفتحون أبوابهم وبصائرهم للنظر والتدبر والتأمل والاستدلال،

فيعرفون ربهم ويذكرونه ذكراً دائماً، وهم أهل الاعتبار فيما أبدع الله، وفيما دبر من عجائب تدل على قدرته وحكمته وعظمته، ويعجز العقل عن إدراكها، وينزهونه عن كل نقص، ويعبدونه، ويطيعونه، ويرجون ثوابه، ويخافون عقابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فنظرة واحدة إلى الكون تملأ النفس انبهاراً بما فيه من روعة ودقة وقوانين ثابتة وحكيمة.

يتجلى هذا في كل شيء؛ من قطرة الماء إلى المحيط، من ذرة الرمل إلى الجبل، ومن النملة إلى أضخم حيوان، ومن ورقة الشجرة إلى الغابة، ومن الجنين في بطن أمه إلى الرجل.

والذين يسترشدون بعقولهم يجدون في خلق الله كثيراً من الدلائل على قدرته، ففي الأرض بقاع متجاورة لكنها مختلفة الطبيعة، فهذه خصبة وتلك مجدبة، وهذه مبسوطة، وتلك تلال، أو جبال، أو هضاب، أو وهاد، وهذه رملية، وتلك حجرية أو طينية، وفي جوف هذه معادن، وفي جوف تلك نפט أو ماء أو غاز... وهكذا.

يسترشدون كذلك بما في الأرض من حدائق وأعناب وزروع شتى، ولكن نباتها يختلف جنساً ونوعاً وشكلاً وطعمًا وحجمًا ورائحة، مع أنها كلها تنبت في مكان واحد، وتشرب من ماء واحد، وتتغذى هواءً واحدًا.

كما يرون في الأنعام عظمة وبرهاناً على قدرة الخالق في خلقه سبحانه لغدد الماشية لإفراز اللبن.

كما يجدون في خلق النحل دليلاً على قدرته للذين يتفكرون؛ حيث ألهم الله النحل باتخاذ بيتها، وصنع خلاياها، وامتصاص رحيقها، وإفراز العسل الذي فيه شفاء للناس، ولله سبحانه قدرة تتجلى كذلك لأولي الأبواب في خلق الرجال والنساء من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما للآخر، وتربطهما ألفة ومودة.

وتتجلى كذلك في اختلاف صور الناس وأشكالهم وألوانهم وأصواتهم ولغاتهم، وما يستكنه ذلك من حكمٍ.

وهكذا يصرف الله سبحانه الآيات البيّنات الدالة على وحدانيته وقدرته، لعل الناس يتأملون ويتفكرون ويتفهمون، وهذا ما نجده في آيات الذكر الحكيم، والتي تدعو إلى ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَأْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿...﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]؟

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَوْنَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿...﴾ [الحج: ٦٣]؟

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَبْرُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّضْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتِ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿...﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿...﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿...﴾ [الفرقان: ٤٦].

هكذا تتأكد الدعوة للتدبر من خلال الصيغ الاستفهامية السابقة، كما يتفاضل الناس بتفكيرهم الذي يصل بينهم وبين الله، والذي يقوي صلتهم وإيمانهم به سبحانه: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿...﴾ [الزمر: ٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿...﴾ [الأنعام: ٥٠].

ويتأكد لنا مما تقدم أن في استعراض عجائب الكون والطبيعة ما يدعو كل عاقل إلى الإيمان بالله، بل لو نظر إلى نفسه، وما فيها من دقة تركيب منذ أن كان نطفة، وما صحب ذلك من تطورات مختلفة، وتأمل سيطرة المخ على سائر أعضاء الجسم، وتأمل حركة القلب ونبضه في دقة ودون توقف، وتأمل عدسة العين وعملها، وتأمل المعدة وعملها الكيميائي، وتأمل في حدوث ذلك كله ستجد كل ذلك سيلاً صحيحاً للإيمان برب الكون، والنطق بوحدانيته سبحانه.

ومن هنا فإن التفكير في عظمة الخالق وعجائب المخلوقات سبيل إلى المعرفة الحقة، وطريق للعمل الصالح الذي يصنع الحضارات، ويبني الأمم الراقية في أخلاقها ومبادئها وقيمها.

هذه الظواهر الكونية وغيرها لا يمكن أن تكون مصادفات، بل لابد من مدبر حكيم، وخالق مبدع، يضع الأشياء في مواضعها وقدرها، فجاءت على هذا النحو البديع، والنظام المحكم.

وما أجمل تعبير القرآن الكريم على عظمة الخلق، وحسن التنسيق فيه، وتكاملية الكون في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٣﴾... [الملك: ٤، ٣].

والظواهر التي تدل على ذلك أكثر من أن تحصى، أو يحيط بها عالم، وفي الكون آيات باهرات، وبراهين ساطعات على إبداعه المحكم، وصنعه المتقن، وآثاره المعجزات.

ولا يمكن لعاقل أن يرد هذه المعجزات إلى الطبيعة أو الصدفة؛ لأن ذلك لا يقول به إلا من سُد على عقله وقلبه منافذ الهداية، ونور الحق، وراح يتخبط في الحياة تخبط المهووس المجنون، ولا يدري ماذا يفعل، ولا يدري ماذا يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ

كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أُعْزَمَ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَمْ يُؤَذَّنْ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿.....﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهذا الكتاب الذي بين يديك -أخي القارئ- دعوة إلى التأمل والتذكر والاعتبار «فهل من مدكر؟»، ما بين التفكير في آيات يستشعرها المسلم في الكون والحياة، وما بين إشارات قرآنية إلى جوانب إعجازية، وما بين ربط الآيات الكونية بما يعرضها من الآيات القرآنية التي يزداد بها المسلم إيماناً وثباتاً وقوة و يقيناً، أو استقرار جوانب إعجازية في القرآن الكريم حول موضوعات جديدة تحدث عنها القرآن باعتبارها ظواهر دالة على عظمة مالك الملك ذي الجلال والإكرام، وفي كل جانب إعجازي نقدم من الصور الإيضاحية ما يجعل الإعجاز راسخاً في قلب القارئ وبصيرته.

ولعل بعض الناس تشده هذه الصور شداً إلى هذا الإعجاز الذي قد لا يتوصل الإنسان إلى أسراره عياناً إلا عندما يشاهد ما يدل عليها من بعض الصور والمرثيات، فهذا الكتاب تصفح في أروقة الكون الفسيح الذي لا نعلم عنه إلا القليل؛ كي يدرك الإنسان أنه قاصر في علمه وإدراكه أمام علم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿.....﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والكتاب الذي بين يديك ذكرى وتذكرة، وانطلاق في الآيات البيّنات التي تجدد إيماننا، وتقوي علاقتنا بربنا سبحانه وتعالى، وهي أشد أهمية لمن يبحثون عن دلائل الإيمان، هذه الدلائل يمكن أن تجد بعضها منها في صفحات هذا الكتاب.

ويقع هذا الكتاب في خمسة مباحث أساسية، تسعى جميعها إلى تبسيط معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَرَأْنَا الْفُرْقَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿.....﴾ [القمر: ١٧].

ولذا بدأنا **المبحث الأول** في التعايش مع القرآن العظيم، وهو استعراض لنماذج قرآنية في المعاشة مع القرآن الكريم والتفاعل معه، مستشهدين بما كان يفعله الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وعندما نتعايش مع القرآن الكريم، نجد أن حواسنا مقبلة إليه منسجمة معه، وهذا ما عرض له **المبحث الثاني** من خلال الجلود الذاكرة.

وأما **المبحث الثالث** فقد ربط بين التذكر والخشية.

وأما **المبحث الرابع** فقد تناول معية الأخوة في الله تعالى، وهي المعية الصادقة التي يجمعنا عليها وبها القرآن العظيم.

وأما **المبحث الخامس** الأخير فقد استعرض نماذج للذاكرين في الكون، وآيات ناطقات على تفاعل الجهادات والكائنات مع ذكر الله عز وجل.

وختامًا، فالرجاء من الله تعالى أن ينفع بجهدنا المتواضع، وأن يكون التوفيق حظه ونصيبه، وأن يجعلنا تعالى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ونسأل الله العظيم رب العرش العظيم التوبة النصوح، وصلاح الجسد والقلب والروح، ونعوذ به تعالى من الغرور والنزور، والكذب والفجور، وفتنة القبور، وانطيمات النور، يا عزيز يا غفور.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاة ترضيك وترضيه، وترضى بها عنا يا رب العالمين في كل لحظة ونفس، عدد ما وسعه علمك العظيم الأزلي القديم.

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سَيِّئْنَا أَوْ آخِطْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا

مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۗ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿...﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ولله الحمد من قبل ومن بعد على نِعَمِهِ الطيبات، وعلى عونه على الصالحات، وبفضله تنال أعلى الدرجات.

الراجي عفو ربه القدير

المقصر الفقير إلى رحمة مولاه

أحمد عبده عوض